الإسلام يوجه الغرائز

الأستاذ محمود محمد عمارة
المدرس بمعهد منوف الدينى

... وينزل الطفل على الحياة ضيفا جديدا . . أبيض الصحيفة . . نبى السريرة .. مشرق الوجدان .

تحدر من صلب عفيف إلى آخر شريف . . ثم يخرج من بين الصلب والترائب . . وفى طبيعته خصائص آبائه وأجداده . . باسطا ذراعيه للحياة . . رافعا رايته البيضاء لها . . ولسان الحال إن أعجزة المقال يهتف : جئت حمامة تنشر فى ربعك الخصيب نشيد السلام ! .

ومن هنا يتشكل سلوكه فى قالب تلك البيئة التى ولد فيها ..

البيت .. المدرسة .. الأصدقاء فى الخارج .. كل الناس الذين تربطه بهم صلة .. وتجمعه وإياهم فى دائرة واحدة .

وهذه البيئة تتعاون مع الوراثة فى تكوين شخصية الطفل وتحديد اتجاهه . . وكما يأخذ الماء شكل الزجاجة التى تحتويه . . يأخذ الطفل طابع المجتمع الذى يعيش فيه .

وقد أعجبنى تصوير الإنسان فى مجتمعه بآلة تصوير :

عيناه عدسة توصل الضوء والصور إلى داخل الآلة . .

والفكر هو « اللوح الحساس » الذى يطبع عليه الضوء ما يعرض أمامه من مناظر الحياة وآراء الناس.

وما رأى الشخص إلا الصور التى يبرزها المصور نقلا عن اللوح الحساس . .

فرأى الإنسان وفكره واتجاهه فى الحياة . . هو صورة لما انطبع على لوحة فكره من آراء الناس .

وإذا كان المجتمع بهذه المثابة من الخطورة . . نرى الإسلام يسلط أضواءه الكاشفة عليه . . إذ هو النبع

الفياض الذى يستقى منه الإنسان شرابه .. ليحوله إلى غذاء صالح لبناء مستقبل صالح .

وما الأسرة بعلاقتها المختلفة .. إلا صورة مصغرة لهذا المجتمع الكبير وقد شملها الإسلام برعايته .. ليخلق منها عشا جميلا .. يأوى إليه الإنسان فيجد الراحة بعد طول عناء ..

ما الذى صنعه الدين لها ؟

حدد واجبات كل من الزوج وزوجه تجاه الآخر . كيلا تكون الحقوق دولة فى يد واحـــد .. والواجبات عبئا ثقيلا على كتف آخر .. وجعل التفاهم والرفق دستورا يسيران على هداه .

فيوجه نداءه للرجال قائلا :

« وعاشروهن بالمعروف فـإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

وبذلك يسد على وساوس النفس كل طريق .. تلك الوساوس التى تتحول إلى حقائق بعد أن يجسمها الوهم .. فتنقلب الحياة الزوجية رأسا على عقب ..

فإذا كرهت زوجك لأنها دميمة فربما أنجبت لك ولدا هز الحياة كلها . وإذا كانت لا تنجب إناثا .. فغيرها لا ينجب قط ..

فإذا أخطأت المرأة .. فعظة بالغة تهز نفسها ..

فإن لم تجد .. فهجر المضجع بعيدا عنها ولا ينبغى للزوج أن يلجأ للضرب إلا إذا لم تثمر إحدى هاتين العقوبتين « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن »

ويبين الإسلام للمرأة طريقها . وأن سعادة البيت فى طاعة الزوج .. والحديث الشريف يقرر أن الملائكة تلعن الزوج التى تخرج بغـير إذن زوجها حتى تعود ..

ورسالتها فى البيت من الأهمية بمكان .. وإذا كان ساسة البلاد يديرون شئون الجيل الحاضر .. فإن المرأة فى بيتها تدبر شئون الأجيال المقبلة .. فليس قانون المرأة :

قصقصى طيرك .. لئلا يلوف بغيرك ! ولكنه — كما قالته أعرابية لإبنتها : « إنك داخلة على زوج لم تعاشريه .. فكونى له أرضا .. يكن لك سماء » ! ! كونى له مهادا لينا .. عفيفة اليد والقلب واللسان .. يكن لك هو الآخر سماء تنشر أمامك

الضياء .. وتمطرك بالغيث وفى جمالها وفسحتها تذوب عنك آلام الحياة وأسقامها . .وبهذا وحـــده يخرج الطفل من البيت إلى الحيـــاة نسخة واضحة غـــير مهزورة . . الوالدين كريمين . . وخلاصته مركزة لمجموعة من الفضائل . . التى ترفع شأن الإنسان .

فإذا ما أختل هـــذا الميزان . . وانطلقت عواصف الغيرة القاتلة . . وظهرت الأنانية بوجها الكالح . . انقلبت السفينة . . وراحت نهبا للأنواء . .

وتنتهى مثل هذه الحرب دائما بهزيمة الفريقين ! . فهى على حساب راحة الزوج وأمنه . . وعلى حساب كرامة المرأة ومستقبلها .. ومع هذا وقبل هذا . . تطبـع الطفل الصغير بطابع قاتم . . يختل معه ميزان حياته وتحتويه مجموعة من العقد النفسية . . التى تجعل الحياة جحيما لا يطاق . . وقد سجلت الاحصائيات أخيرا أن الخلافات الزوجية أضر على الأطفال من زوج الأب ! .

على أن الأحصائيات العلمية أثبتت أخيرا أن ٩٠ ٪ من نزلاء الإصلاحيات جاءت نتيجة حتمية للطلاق .. وللشجار الدائر بين الطرفين

وإذا . . فالطفل وديعة فى يد أبويه . . كصفحة نقية بيضاء . . لا لغو فيها ولا تأثيم . .

وفى استطاعة الأبوين أن يخطا فيها قصيدة جميلة . . تتغنى بالفضيلة . وتعلوا على نزوة الأهواء . . وهما مسئولان عنه أمام الله والناس . .

وقد سمعنا .أخيرا بقانون صدر فى بعض الولايات الأمريكية ينص على عقاب الأب الذى يهمل فى تربية أبنائه . .

وهو فى الواقع قانون الإســـلام الخالد . وإن كان يحمل اسماً أمريكياً

فالله سبحانه وتعالى يقول :

« يا أيها الذين أمنوا قوا أنفسكم وأهليـــكم نارا وقودها النـاس والحجارة » .

وكما يقـول الإمام الغزالى إذا كنت تخاف على والدك من نار الدنيا فلأن تحفظه من نار الآخرة أولى .

فإذا ما قامت الأسرة بواجبها كاملا نحو الطفل . . سلمته بعد ذلك إلى المدرسة إنسانا نظيفا . .

ثم تحمل المدرسة الراية من بعدها لتمضى معه فى رحلة العيش خطوات أخرى نحو الكمال . .

وإذا كان خطر البيت هو أن الصبى فيه كالعجينة الرخوة يشكل فى أية صورة . .

فإن أهمية المدرسة تظهر فى أنها الفترة الحرجة . . فى تاريخ الإنسان . . فترة المراهقة . . التى تتفتح فيها المواهب . . وتبحث لنفسها عن الطريق التى تعبر فيه عن نفسها . . وتنتشى الغرائز والطاقات المختلفة . . وتستوى على سوقها وتلح فى التنفيس عن ذاتها . . وإذا لم تهيىء المدرسة لهذه الغرائز . . وتلك الطاقات مجالاتها التى تعمل فيها . .

تمردت وانفجرت . . فيتحطم بذلك وجود الشخص . .

والإسلام بمبادئه السامية يرسم للمدرسة المجالات . . ويحدد الدوائر التى ستنطلق فيها كل غريزة لتعبر عن نفسها . . بصورة تعود على الفرد وعلى المجتمع بالخير والرفاهية . .

ونحن نرى علماء الإسلام من رجال التربية ينادون بل يحتمون الرياضة بجميع صورها فيقول أحدهم:

« علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » .

إلى غير ذلك من التوجيهات التى تتسامى بهذه النزعات . . وتبتعد بها عن معنى الحيوانية فيهـا . . بحيث تكون للانسان عونا وظهيرا . . وإذا ما رجعنا إلى القرآن الكريم . . سنجد فيه صورا حية نابضة للمجالات التى رسمها لتكون مرعى خصيبا للغرائز :

فى طبيعة الإنسان غريزة المقاتلة فيأخذ الإسلام بيدها . . ثم يطلقها فى مرعاها اللائق بها . . وهو القتال فى سبيل الله :

« وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده »

« فليقـاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة »

وبذلك لا تلتفت إلى وسيلة أخرى غير شريفة كالقتل والسلب وقطع الطريق . .

والغريزة الجنسية يحس كل إنسان ضرورتها فى نفسه . .

والإسلام يلوح لها : بالزواج حتى لا يلجأ الإنسان للبغاء : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة »

والإنسان طموح بالغريزة . . وبدل أن يترك لهذا الطموح الحبل على الغارب . .

يسوقه إلى العمل . . إلى الإنشاء والتغمير . . إلى صنع الطـــائرات والنفاثات . . ولكن فى خدمة السلام

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »

وغريزة حب الاستطلاع تتجه أول ما تتجه إلى التجسس ، والبحث عن المثالب والعيوب لنشرها تحت الشمس . . فيضرب الناس بعضهم رقاب بعض . . والإســـلام الحنيف يرسم لها ميدانها الخليق بها :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »

أفـلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت . . وإلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت . . وإلى الجبال كيف نصبت »

وهـكذا . . فيما يتعلق بجميع الغرائز .

وإذا كانت الجريمة هى انحراف الشخص لأنه فشل فى التوفيق بين ميوله وقانون مجتمعه . . فإن الإسلام بمسلكه هذا يخلق الانسجام بينهما . . فيشيع الأمن . . وتنتشر السكينة . . ويطوى الحقد رايته السوداء . . أمام أشعة الحب البيضاء . .

وإلى العدد القادم إن شاء الله ؟

محمود محمد عماره

المدرس بمعهد منوف الدينى

شهيد التصوف الإسلامى

الحـــــلاج

يواصل الأستاذ طه عبد الباقى سرور ، نشر هذه الدراسة العلمية عن شهيد التصوف الإسلامى الحلاج ابتداء من العدد القـــادم إن شاء الله .